[116] لتقدم أخذ العهد على العلماء (1) ببذل العلم على أخذ العهد على الجهال بطلبه. قيل: فيه إشكال لأن كل واحد من أفراد الناس في أول الخلقة جاهل ثم يكتسب العلم ويصير عالما أو لا يكتسبه فيبقى على جهله فكيف يكون العلم قبل الجهل ؟ أقول: لا دلالة فيه على أن العلم المتقدم والجهل المتأخر بالنسبة إلى محل واحد أو إلى شخص، بل إنما يدل على أن وجود حقيقة العلم قبل تحقق حقيقة الجهل (2) فيجوز أن يراد بالعلم المتقدم علم الواجب أو علم الروحانيين أو علم نبينا (صلى ا عليه وآله) وعلم الأئمة المعصومين (عليهم السلام) لأنهم أنوار إلهية ولم تكن علومهم مسبوقة بجهل أصلا، وقد ثبت أنهم كانوا معلمي الملائكة في علم التوحيد وصفات الحق. وهذا القدر كاف في التعليل، ولو فرض تحقق تلك الدلالة فقوله: كل واحد من أفراد الإنسان في أول الخلقة جاهل ممنوع، ولم يقم عليه برهان، وما اشتهر بينهم من أن النفس في أول الفطرة خالية عن العلوم كلها وقالوا: يظهر ذلك لذوي الحدس بملاحظة حال الطفل وتجارب أحواله فمدفوع بما ذكره ابن سينا من أن الطفل يتعلق بالثدي حال التولد بإلهام فطري، ولو قالوا: المراد بمبدأ الفطرة حال تعلق النفس بالبدن وهو سابق على تلك الحالة ورد عليهم: أنه كيف تحصل التجربة بخلو النفس عن العلم في حال تعلقها بالبدن على أنه لو تم فإنما يدل على خلوها عن العلم الحصولي دون الحضوري ؟ وقد صرحوا أيضا بذلك حيث قالوا: خلو النفس عن العلم بذاتها باطل، إذ المجرد لا يغفل عن

_____

1 - الفيض يتخطى من الأشرف إلى الأخس، ووسائط فيض الحق تعالى أعاظم الوجود وأفاضلهم، فالتكليف والعهد يتوجه إلى العالم قبل أن يتوجه إلى الجاهل. (ش) 2 - العلم قبل الجهل في الجود كما أن الكامل قبل الناقص، والفعل مقدم على القوة، والصورة قبل الهيولى، والناس مختلفون في هذه القاعدة، فالماديون والملاحدة وأصحاب الحس قائلون بأن الجوهر الموجود المستقل بذاته هو الجسم المادي ليس قبله شئ ومنه ابتداء الأشياء وبسبب تركيب العناصر حدثت الصور، ومنه وجد الإنسان والعقل عارض حادث حال في الدماغ، وحاصل تركيب خاص ومزاج فيه. والإلهيون قائلون بخلاف ذلك وأن الجوهر المستقل الموجود أولا هو العقل والأجسام معلولة له ومتفرعة عليه، والهيولى - أعني المادة - متعلقة القوام بالصورة، والصورة متعلقة بموجود مجرد عاقل يقيم الصورة مع الهيولى والمظهر في خلقة الإنسان وتركيب أعضائه والمصالح التي روعيت فيها يدل دلالة واضحة على أن موجودها موجود عاقل مقدم على الدماغ، فكيف يكون العقل مطلقا فرعا على الدماغ ؟ وما هذا إلا دور صريح، فقوله (عليه السلام): " العلم قبل الجهل

" قريب المفاد من قولهم: " أول ما خلق ا العقل ". وبالجملة الماديون قائلون بانحصار الوجود في قوس الصعود وتدرجه من الأخس إلى الأشرف، والإلهيون قائلون بقوس النزول والصعود معا وتدرج الوجود من الأشرف إلى الأخس ثم رجوعه من الأخس إلى الأشرف. (ش) (*)